أضواء على حياة الشاعر الشهيد

عبد الرحيم محمود

بقلم: سَعيد العَلمي (مدريد - إسبانيا)

مُقدِّمة:

قال عنه الروائي **جبرا إبراهيم جبرا**: **"عبد الرحيم محمود** هو الشاعر الفارس الأول في شعرنا المعاصر، الذي اتبع القول بالفعل". وقالت عنه الشاعرة **فدوى طوقان**: "صوت شعر **عبد الرحيم محمود** هو صوت الشعب الفلسطيني، بكل ما فيه من قوة وأصالة، وتدفق وحرارة، وكان يحمل في داخله ضمير الشاعر الملتزم". وكتب عنه الشاعر **عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)**: "كان **عبد الرحيم محمود** أبرّ فتى لأقدس أم. حمل جروحها بين جنبيه... وأشرق أصباحها في شِعره، وتلوّنت أغانيه بألوان المروج". وقال عنه **أبو سلمى** أيضا: كان **عبد الرحيم محمود** يؤمن بالشعب وحده، هذا الشعب العظيم، أما (الزعامات) الجائرة، فكان كافرا بها، لأنها تضلل الأمة. وقال **محمود درويش**: "نحن امتداد لشعر **أبي سلمى وإبراهيم طوقان** و**عبد الرحيم محمود**. وقال عنه **هارون هاشم رشيد**: **عبد الرحيم محمود** نبراس مضيء في الطريق إلى الحق، ذلك الإيمان النابع من عقيدة أبدية راسخة".

وُلد الشاعر الفلسطيني الكبير **عبد الرحيم محمود** في قرية **عَنَبْتا**، في محافظة **طولكَرِم**، في شمال **الضفة الغربية** المحتلة. كان ذلك في عام 1913، ولا تشير أي من المصادر إلى اليوم الذي ولد فيه، ولا حتى في كتاب الراحل **عز الدين المناصرة (عبد الرحيم محمود - الأعمال الكاملة)** الذي تطلب عملاً استمرّ لأربع سنوات قام فيها **المناصرة** بزيارة عدد من الدول العربية بحثاً عن قصائد ومقالات **لعبد الرحيم محمود** لم يكن قد سبق نشرها، وهو الكتاب الذي يُعتبر منذ صدوره لأول مرة في 1988، في **دمشق**، عن **دار الجليل** للنشر والتوزيع، المرجع الأكثر شمولية ومصداقية عن أعمال الشاعر الشهيد، دون التعمق في سرد حياته. أما استشهاده فكان في الثالث عشر من شهر تموز/ يوليو 1948 في **معركة الشجرة** الثالثة التي بدأت في 8 يوليو وانتهت في 15 يوليو بسقوط قرية **الشجرة** نهائيا في يد القوات الصهيونية التابعة لعصابة هاغانا. وكانت قرية **الشجرة** (قرب **الناصرة**، شمالي **فلسطين**) قد سقطت لأول مرة في يد قوات **هاغَانا** في 6 أيار/ مايو 1948، ثم استردتها قوات المجاهدين التابعين **لجيش الإنقاذ** في المعركة الثانية التي انتهت في 11 حزيران/ يونيو 1948. ومع **عبد الرحيم محمود** سقط ما مجموعه نحو 700 مجاهد فلسطيني في المعارك الثلاث دفاعا عن قرية **الشجرة**.

وكما قال **جبرا إبراهيم جبرا**، شكّل **عبد الرحيم محمود** حالة نادرة بين شعراء العرب، ممن يقولون في الإيمان بالله وبالشجاعة وبالبطولة وبالوطنية وبالفداء وبالتضحية وبحب الشهادة ما يفعلون، ولا يكتفون بالتغني بهذا كله دون أن يُعطوا دليلاً واحداً على صدقهم فيما يقولونه على الملأ وعلى المحافل وعبر أبواق

الإعلام. فلم تكن تلك المعارك دفاعاً عن قرية **الشجرة** هي الأولى التي كان **عبد الرحيم محمود**، المُكَنّى بِـ **أبي الطيِّب**، قد شارك فيها. ولعل في استشهادِه مقاتلاً ما يُذكّرنا بالظروف التي أحاطت بمقتل **أبي الطيب المتنبي** على يد رجال **فاتِك بن أبي جهل الأسدي**. وكما نعرف جميعاً، فقد جاء مقتل **المتنبي** نتيجة لإرادته، بعد هروبه من المعركة، أن يكون صادقاً فيما قاله في بيته الشهير:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني

والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

وليس هذا ببيت منفرد أو نادر عند **المتنبي**، فأبياته بالشجاعة وبالاستهانة بالموت، لا عد لها، وهو القائل:

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ

فَلا تَقنَعْ بما دونَ النّجومِ

فطَعْمُ المَوْتِ في أمْرٍ صغيرٍ

كطَعْمِ المَوْتِ في أمْرٍ عَظيمِ

وهو القائل أيضا:

وإذا لم يكن مِنَ الموتِ بدٌّ

فمن العجزِ أن تكونَ جباناً

وهي نفس معاني الكِبرياء والنَّخوة والبطولة والفداء والفخر بالهوية العربية التي يرسمُها **عبد الرحيم محمود** في شعره، وهو صاحب الأبيات التي يعرفها المثقفون العرب من المحيط إلى الخليج عن ظهر قلب، من قصيدته (الشهيد) التي تعود لعام 1937:

سأحملُ روحي على راحَتي

وألقي بها في مهاوي الرّدى

فـإمّا حياةٌ تسرُّ الصديقَ

وإمّا مـماتٌ يغيظُ العِدى

ونفسُ الشريفِ لها غايتانِ

ورودُ المَنايا ونَيلُ المُنى

وما العيش؟ لا عِشتُ إن لمْ أكُنْ

مَخوفَ الجنابِ حرامَ الحِمى

إذا قلتُ أصغى لي العالمون

ودوّى مقالـيَ بيْنَ الورى

لعمرُكَ إني أرى مَصرَعي

ولكن أغذّ إليهِ الخُطى

أرى مصرعي دونَ حقي السليب

ودون بلادي هو المُبتـغى

إلى أن يقول في نفس القصيدة:

لعَمْرُكَ هذا مماتُ الرجالِ

ومن رام موتاً شريفاً فـذا

فكيفَ اصطباري لكيدِ الحقودِ

وكيفَ احتمالي لسَوْمِ الأذى

أخوْفاً وعندي تهونُ الحياةُ

وذُلاً وإني لرَبِّ الإبا

بقلبي سأرمي وجوه العُداةِ

فقلبي حديدٌ وناري لـظى

وأحمي حِياضي بحدِّ الحُسامِ

فـيعلَـمُ قومي بأنّي الفتـى

وكما في حالة **المتنبي** فإن هذه الأبيات **لعبد الرحيم محمود** لم تكن طارئة أو فريدة في شعره، فعلى هذا المنوال نظم شاعرنا الكثير من قصائده الوطنية، كما نجدُ في قصيدته (وعد بلفور) التي ألقاها لأول مرة في 1935:

العُربُ ما خضعوا لسلطةِ قيصرٍ

يوماً ولا هانوا أمام تجَبُّرِ

لا يصبرونَ على أذىً مهما يكُنْ

والحُرُّ إن يُسَمِ الأذى لم يَصبرِ

ثم يقول فيها مخاطباً **بريطانيا**:

وَأَتى الحَليفُ وَقامَ في أَعتابِنا

مُتَحَيِّراً أَنّا هُدى المُتَحَيِّرِ

وَاِستَنصَرَ العَربَ الكِرامَ فإنَّهُم

غوثُ الطَريدِ وَنُصرَةُ المُستَنصِرِ

وإذا السيوفُ كأنّهنَّ كواكِبٌ

تهوي تَلامَعُ في العَجاجِ الأكدَرِ

تغلي الصدورُ وليسَ في غليانِها

إلا نذيرُ العاصفِ المتفجِّرِ

ولقد تصبّرنا عليكَ فلمْ نُطِقْ

مِنكَ المزيدَ ولاتَ حينَ تصبُّرِ

هذي البلادُ عرينُنا وفِدىً لها

مِن نَسلِ يَعرُبَ كلَّ أسْدٍ هُصَّرِ

وفي قصيدته (دعوة للجهاد) ينادي الجماهير لتلبية الدعوة للنضال والدفاع عن الوطن:

دعا الوطن الذبيح إلى الجهادِ

فخفَّ لفرطِ فرحته فؤادي

وسابقتُ النسيم –ولا افتخارٌ-

أليسَ عليَّ أن أفدي بلادي

حملتُ على يدي روحي وقلبي

وما حمّلتُها إلّا عتادي

وقلتُ لمَن يخافُ مِن المَنايا

أتفرَقُ من مجابهةِ الأعادي

فدونك خِدرُ أمّكَ فاقتَحِمْهُ

وحسبكَ خسة هذا التهادي

وفي قصيدته (الشعب الباسل) يرى الشاعر أن الكفاح المسلح هو الطريق لإنقاذ الشعب الفلسطيني من المصير الذي كان يحيق به والذي أثبت الشاعر أنه كان على دراية مسبقة به في قصيدته (نجم السعود) وقصائد أخرى له. يقول في (الشعب الباسل):

الحقُّ ليسَ بِراجعٍ

لـذويـهِ إلا بالـحِرابْ

والصرخةُ النكراءُ تُجـ

ـدي لا التلطّفُ والعِتابْ

والـنارُ تـضمَنُ والحـديـ

ـدُ لِمَن تَساءَلَ أن يُجابْ

حكّمهُما فيما تَرى

فيهما فصلُ الخِطابْ

وليست هذه سوى بعض الأمثلة على ما يزخرُ به بقوة شعر **عبد الرحيم محمود** مِن وضوح الرؤية والإيمان بالله وبأنه لم يكن هناك من حلّ للتخلص من العدوّ الغاشم إلا التمسُّك العنيد بالكفاح المسلح والتضحية بالروح والحياة من أجل إنقاذ **فلسطين**، وهي العقيدة الفِدائية الراسخة التي تشرّبها الشاعر من شيخ الفِدائيين الشهيد **عز الدين القسام** إبان انضمامه له، ومُقاتلاً معه، في 1935، عندما كان شاباً يافعاً في الثانية والعشرين من عُمرِه، والتي عبر عنها بكل وضوح في قصيدته (طريق الحياة):

وأقِمْ على الأشلاءِ صرحَكَ إنما

مِن فوقِهِ تُبنى العُلا وتُقامْ

واغصِبْ حقوقَكَ قط لا تستَجدِها

إن الألى سلبوا الحقوقَ لئامْ

هذي طريقكَ للحياةِ فلا تحِد

قد سارَها من قبلكَ القسّامْ

وباختصار شديد، تتلخص أهم المواقف الثورية التي برزت في شعر **عبد الرحيم محمود** فيما يلي:

1-التحريض على النضال.

2-مواقف ملتزمة: الرفض، الغضب، الأرض.

3-الغربة والحنين.

4-الرؤية المستقبلية والحِس النقدي.

5- الرغبة في الإستشهاد. **(1)**

نشأته

وُلد **عبد الرحيم محمود** في قرية **عَنَبتا**، على مسافة 15 كم من مدينة **نابلس**، مدينة الثقافة والثورات والمقاومة، والتي عُرفت جبالها باسم (جبل النار) بسبب الدورالرئيسي الذي لعبته تلك المنطقة في معارك الثورة الفلسطينية الكبرى (1936-1939) وفي حرب **فلسطين** في 1948. وتقع **عَنَبْتا** بين **نابلس** و**طولكرم**، وتحيطها من جهاتها الأربع قرية **كفر رمان** وجبل **كفر اللبد جنوبا** وقرية **بَلعا الجبلية شمالاً**، ثم قرى **سفارين** و**بيت ليد** و**رامين**. وتُعرف المنطقة منذ قرون ببساتينها وبحبوبها وبقولها وبكروم العنب وببيّارات الزيتون والبرتقال وغيرها من الحمضيات والفواكه الأخرى التي كانت تُصدّر إلى **أوروبا** منذ مطلع القرن العشرين، وتُعرف مدنُها وقراها منذ القرن التاسع عشر بمعامل الصابون والطحينة والمعاصر المنتجة لزيت الزيتون. و**عَنَبتا** من القرى العريقة التي يؤكد المؤرخون أن تاريخها يعود لخمسة آلاف سنة. ويقول **مصطفى مراد الدباغ** (1898-1989)، في الجزء الثالث من كتابه (بلادنا فلسطين) الذي صدر في 11 مُجلداً في بيروت، في 1965، والذي يُعتبر من أهم المصادر لتوثيق المعلومات حول مختلف مناطق **فلسطين** وشعبها، أن اسم **عنبتا** يعود للعهد الروماني وأنه مُشتق من السريانية (Enba) بمعنى عنب، إذ

اشتهرت منذ القدم بجودة العنب الذي تنتجه أراضيها. غير أن مصادر أخرى تشير إلى أن اسم القرية يعود (عين بتا) وهي عين ماء تقع شمالي القرية.

ونشأ **عبد الرحيم محمود** في بيت علم ودين إحتوى مكتبة ثريّة، فقد كان والده، الشيخ **محمود عبد الحليم الفقهاوي** من خريجي **الأزهر**، وأصبح من شيوخ المذهب **الحنبلي**، وعرف بالورع والتقوى وبشغفه بالأدب لاسيما الشعر وكان يردده في المناسبات الإجتماعية والثقافية. ويختلف إسم **والد عبد الرحيم محمود** من كتاب لآخرعن حياة الشاعر، ففي كتاب الدكتور **كامل السوافيري** (ديوان عبد الرحيم محمود) ورَدَ اسم والده: **الشيخ محمود عبد الحليم**. وفي كتاب الدكتور **محمد عز الدين المناصرة: عبد الرحيم محمود – الديوان والمقالات النقدية**، ورد اسمه التالي: **"محمود عبد الحليم عبد الله**، من فرع **الفقهاء** في **عَنَبتا"**. أما كتاب: **عبد الرحيم محمود- شاعراً ومناضلاً**، للدكتور **محمود شلبي**، فيُورد إسم الوالد: **محمود عبد الحليم عبد الله**، دون ذكر انتمائه لعائلة الفقهاء. أما المؤرخ والعلامة اللبناني**عجاج نويهض**، الذي قضى ربع قرن من حياته في **فلسطين**، فيذكر في كتابه **(رجال من فلسطين – ما بين بداية القرن و 1948)** الذي صدر في **بيروت**، في 1981، أن **والد عبد الرحيم محمود** كان الشيخ **(محمود العنبتاوي)**. وجاء في هذا الكتاب أن **الشيخ العنبتاوي** "كان من الذين يقولون شعر الجماهير باللغة الدارجة، وكله قبس، فعرق الشعر في **عبد الرحيم** من أبيه، وعلى ما يبدو فإن هذا من الإرث الموهوب لا النظم المكسوب". ولم يرد اسم هذا الرجل، الذي كان له الأثر العميق في تكوين شخصية ابنه، في كتاب (عبد الرحيم محمود – بطل معركة الشجرة) **لرشيد جبر الأسعد**، مع أنه تحدث عن مزاياه التي ذُكرت في معظم الكتب التي تعرضت لسيرة **عبد الرحيم محمود**، والتي سنعددها فيما بعد. أما والدة **عبد الرحيم محمود**، وهي الحاجة **كاملة الحاج نصّار** فلا يُعرف عنها إلا القليل.

وكان مجلس الشيخ **محمود** هو المدرسة الأولى التي تعلم فيها الشاعرالعلم والدين والفصاحة والبلاغة والبيان، وحفِظَ القرآن، واستمع للكثير من شعر العرب وسيَر أبطالهم، وبذلك **جمع عبد الرحيم** أصالة النسب واللغة والتجربة التاريخية مع أصالة المعرفة والأفكار والمعاني وقوة الإعتزاز بالهوية العربية، وصِدق الإنتماء للإسلام، وأثّرت تلك العوامل على شخصيته، وشاعريته، وخياله، ومعانيه. وهكذا نشأ الشاعر في كنف أسرة عُرفت بالثقافة والعِلم والفقه، وكان منزلُ العائلةِ عامرٌ بالكتب التراثية والدينية وعيون الأدب العربي، وهو ما كان له تأثيره العميق في بناء شخصية **عبد الرحيم** ونفسيته وثقافته ومواقفه طيلة حياته.

وقد أحاط الشيخ **محمود** إبنه **عبد الرحيم** برعاية تربوية كاملة. فأدخله المدرسة الإبتدائية في **عَنْبْتا**، ولم تكن الدراسة فيها تتجاوز الصف الخامس، وهو ما أضطر الوالد عام 1925 لنقل ابنه إلى مدرسة **طولكَرِم** الإبتدائية لسنتين أخريَين أنهى فيهما دراسته في الصف السادس والسابع. بعد ذلك انتقل الصبي **عبد الرحيم** إلى مدينة **نابلِس**عاصمة الثقافة الفلسطينية، حيث التحق بمدرسة **النجاح** الثانوية التي يعود تأسيسها إلى 1918 والتي تحولت رسمياً إلى جامعة في 1977.

أساتـذة عبد الرحيم محمود

وعُرفت مدرسة النجاح منذ تأسيسها بتلقين طلابها الإنتماء للهوية العربية والتمسك بها، مُشعلة في نفوسهم جُذوة الوطنية والقومية والفخر بالأمجاد العربية عبر التاريخ. وقضى الفتى **عبد الرحيم** في هذه المدرسة الفترة من 1928 إلى نهاية السنة الدراسية في 1933. وصادف وجود **عبد الرحيم** في **النجاح** وجود شاعر فلسطين الأكبر، **إبراهيم طوقان**، مدرِّساً فيها خلال العام الدراسي 1929-1930، فكان **عبد الرحيم** تلميذاً له، وقد لمَحَ **طوقان** فيه شعاع الموهبةِ الشعرية واتساع مخيلته ونبوغه فحبب إليه –كما إلى غيره من طلابه– الأدب والشعر. وكان **إبراهيم طوقان** قد مرَّ بنفس هذه التجربة عندما تتلمذ في **القدس** على يد الأديب والمدرّس من أصل لبناني، **نخلة زريق**، الذي فتح عيون تلميذه **إبراهيم** وتلامذة آخرين على كنوز الشعر العربي. وكان لقاء **عبد الرحيم** بمدرِّسِه **إبراهيم** في مدرسة **النجاح** بداية صداقة متينة بينهما استمرت حتى وفاة **إبراهيم طوقان** في سن مبكرة في 1941، عندما كان في السادسة والثلاثين من العمر، وهو العمر الذي لم يكتب لتلميذه **عبد الرحيم** أن يصل إليه، إذ استُشهد وهو في الخامسة والثلاثين. وقام الأديب والشاعر الراحل **عزالدين المناصرة**، في كتابه الشامل عن النصوص الشعرية والنثرية **لعبد الرحيم محمود** بنشر رسالة بخط يد الشاعر موجهة لصديقه **إبراهيم طوقان**، جاء من بين فقراتها: **"**أجِدُني، وحياتك، مَديناً لك بشيءٍ كثير. فقد كنتَ أول من غرس في روحي تذوُّق الجمال، وأول من أوحى إليَّ سامي التصور والخيال. وإنك لا تزال كما كنت، ملهمي والآخذ بيدي لآخر الشوط، فبأي لسان أشكرك؟ أعطنيه**!!"**. ويُنهي **عبد الرحيم محمود** رسالته تلك، المُحرَّرةُ بتاريخ 19 يناير 1938، قائلاً: **"**ولكن ثِق أني لك دائما أخ مِن الذين لم تلدهُم أمُّك، وإني دائماً لك سيفٌ إن ضربتَ به قطعتْ، وإن أمَرتَني أطعتْ**"**.

وإضافة **لابراهيم طوقان** حظيَ **عبد الرحيم محمود** بكوكبة من المدرسين رفيعي المستوى في مدرسة **النجاح** نذكر منهم الأديب والسياسي **أكرم زعيتر** (1906- 1996) الذي كان والده، **عمر زعيتر**، من كبار رجالات **نابلس** ورئيساً لبلديتها في أوائل القرن العشرين. وكان **أكرم زعيتر** حتى 1948 مناضلاً وطنياً من الصف الأول مما أدى إلى اعتقاله من طرف المحتل البريطاني المرة تلو المرة، وكان رئيسا لتحرير صحيفة (مرآة الشرق) في **القدس** حتى أغلقتها السلطات البريطانية، ثم رئيسا لتحرير صحيفة (الحياة) في **القدس** أيضاً حتى اعتقل وأغلقت الصحيفة في 1931. ومنذ ذلك الحين عمل في مدرسة **النجاح**. واستمر **زعيتر** مثابراً على نشاطه الوطني وكان ينشر مقالاته الوطنية والسياسية في جريدة **الدفاع** الفلسطينية، حتى 1936 عندما أصبح من أوائل المعتقلين لدى نشوب الثورة الفسلطينية الكبرى. وكان **زعيتر** من جملة الأعلام والمناضلين الفلسطينيين الذين فروا إلى **العراق** هرباً من مطاردة السلطات البريطانية، وكان –أسوة بتلميذه السابق آنذاك، **عبد الرحيم محمود**– من المنخرطين في ثورة **رشيد عالي الكيلاني** في 1941 إلى أن فشلت تلك الثورة ففر مع رفاقه الفلسطينيين إلى **بادية الشام**، وهي الفترة التي كتب فيها **عبد الرحيم محمود** قصيدته (حجر في كثبان رمل) معبرا فيها عن حنينه لأرض **فلسطين**. وحتى 1948 تنقل **زعيتر** مقيماً في **سوريا** و**تركيا** التي عاش فيها لاجئا سياسياً لثلاث سنوات قبل أن يعود **لسوريا** عندما حصلت على استقلالها في 1946 ليصبح من المقربين **لشكري القوتلي** في فترة رئاسته الأولى (1943-1949) متقلداً عدة مناصب سياسية. وبعد النكبة أقام **زعيتر** في **الأردن** حتى وفاته، وكان سفيراً لها في عدة دول ونائباً في البرلمان، كما شغل مناصب سياسية عدة إضافة إلى عضويته في **المجمع الملكي الأردني للغة العربية**.

ومن بين أولئك الأساتذة أيضا نذكر مدير مدرسة النجاح **قدري حافظ طوقان** وكان من مواليد مدينة **نابلس** (1910-1971) ويُعتبر واحدا من أعلام الفكر العربي في القرن العشرين. درَس المرحلتين التأسيسية والثانوية في مدرسة **النجاح**، ثم بعد تخرجه بدرجة بكالوريوس في العلوم من **الجامعة الأمريكية** في **بيروت** أصبح مدرساً للرياضيات فيها ثم مديراً لها.

أصدر منذ الأربعينات نحو 30 كتابا في القضية الفلسطينية والعلوم والثقافة نذكر منها على سبيل المثال (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك) و (العيون في العلم) و (بعد النكبة) و (وعي المستقبل) و (الخالدون العرب) و (بين البقاء والفناء: في الطاقة الذرية) و (النزعة العلمية في التراث العربي) و(ابن حمزة والتمهيد إلى اللوغارتمات) و(حيوية العقل العربي في نقد الفكر اليوناني).

وتستمر قائمة الشخصيات الفذة الذين تتلمذ على أيديهم الشاعر **عبد الرحيم محمود**، ونعثر فيها على اسم **محمد عزة دروَزَة** (1887- 1984) الذي كان مديرا لمدرسة **النجاح** من 1921 إلى 1927. ويقول **دروزة** في مذكراته عن تلك الفترة من حياته: "منذ السنة الأولى صرت أجمع طلاب الصفوف الإعدادية بعد ظهر كل ثلاثاء وألقي عليهم محاضرة في مواضيع أخلاقية وأدبية ووطنية وإسلامية وتاريخية واجتماعية ، وكنت أسمح لمن يريد من الطلاب طرح ما يريد من أسئلة بصدد الموضوع الملقى وأجيب عليه". وفي مكان آخر من مذكراته يقول بأن سُمعة مدرسة **النجاح** الطيبة وصلت إلى **المغرب العربي** وقد استقبلت في أعوام إدارته للمدرسة، والأعوام التي تلتها، العديد من الطلاب المغاربة الذين كانوا يدرسون في القسم الداخلي في المدرسة.

ولد **محمد عزة دروزة** في **نابلس**، وكان مناضلاً سياسياً ذا نشاط واسع وعميق الأثر، سواء في **فلسطين** أم في **سوريا**، مشاركاً في تأسيس أحزاب وجمعيات سياسية عروبية، فكان أحد واضعي الدستور السوري الأول، وكان من أعلن من شرفة بلدية **دمشق** استقلال **سوريا** وإعلان **المملكة السورية العربية** في 8 مارس/آذار 1920. وكان أديباً ومؤرخاً وصحفياً ومترجماً ومفسراً للقرآن الكريم، وكان أحد مؤسسي الفكر القومي العربي إلى جانب **ساطع الحصري**.

ألّف دروزة نحو 50 كتاباً، ووضع مذكراته في 6 مجلدات ضخمة، مجموعها 4256 صفحة، تضمنت تاريخ الحركة القومية العربية والقضية الفلسطينية، كما أصدر (تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة) في 8 مجلدات مجموعها نحو 3000 صفحة أورد فيها الأدلة على عروبة كل جزء في الوطن العربي. ومن مؤلفاته أيضا (العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر الهجري) من 9 أجزاء في نحو 2200 صفحة. ومن كتبه الكثيرة في الإسلام والتفسير (التفسير الحديث) في 12 جزءاً و (الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة) في مجلدين كبيرين. وله 11 كتاباً في القضية الفلسطينية نذكر منها (القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها) و (مأساة فلسطين) و (فلسطين والوحدة العربية).

ومن أساتذة **عبد الرحيم محمود** أيضا، الشيخ **عبد الحميد السائح** (1907-2011)، وهو أيضا من مواليد **نابلس**، وبعد تخرجه من جامعة الأزهر في **القاهرة** في 1927 التحق بالعمل في مدرسة **النجاح** مدرسا للغة العربية والدين الإسلامي. وكان السائح واحداً من طلائع الثورة الفلسطينية الكبرى ضد البريطانيين والصهيانة مما أدى إلى اعتقاله ونفيه من مدينة **نابلس** في 1937. وشغل **السائح** أرفع المناصب القضائية

في **فلسطين** وبعد ذلك في **الأردن** حيث شغل منصب وزير الأوقاف لمرتين في الفترة من 1967 إلى 1970 وانتخب رئيسا للمجلس الوطني الفلسطيني (البرلمان) في 1984وهو المنصب الذي شغله حتى اعتزاله العمل السياسي في 1993. وللسائح عدد من المؤلفات نذكر منها على سبيل المثال: (مكانة القدس في الإسلام) و (ماذا بعد إحراق المسجد الأقصى؟) و (فلسطين، لا صلاة تحت الحراب: مذكرات الشيخ عبد الحميد السائح).

ويبدو أن عدداً من أعلام الفكر العربي كانوا على موعد في مدرسة **النجاح** في تلك الفترة المبكرة من القرن العشرين، وهي الفترة التي درَس و درَّسَ فيها هناك شاعرنا **عبد الرحيم محمود**، فما زال لدينا في قائمة من عملوا في التدريس فيها آنذاك العلامة اللبناني **عمر فروخ** (1906-1987) الذي كان باحثاً ومؤرخاً وأديباً ومترجماً ومحققاً وأستاذاً جامعياً.

عمل **فروخ** مُدرساً في **النجاح** بعد تخرجه من كلية العلوم في **الجامعة الأمريكية** في **بيروت**، ثم عاد للدراسة ليُكمل تعليمه حتى حصوله على الدكتوراة في **ألمانيا** في 1937. وكان **فروخ** صاحب امتياز **مجلة الأمالي** البيروتية ورئيس تحريرها، وهي المجلة التي نشرت 12 من قصائد **عبد الرحيم محمود** وعدداً من مقالاته. وعمل **فروخ** مدرساً في **دار المعلمين** في **بغداد** في 1940 و 1941، أي نفس الفترة التي كان فيها **عبد الرحيم محمود** و**إبراهيم طوقان** في **العراق** أيضاً. وبعد أن شغل عدداً من المناصب في التعليم الجامعي في **سوريا** أصبح عضواً في **مجمع اللغة العربية في دمشق**، ثم في 1960 عضواً في **مجمع اللغة العربية في القاهرة**. وللدكتور **فروخ** عدد كبير من المؤلفات بينها: (تاريخ الأدب العربي) في 6 أجزاء و (تاريخ العلوم عند العرب) و (التبشير والإستعمار في البلاد العربية) و (أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية) و (عبقرية اللغة العربية).

هل يعرف أحدكم مدرسة ثانوية جمعت هذا الكم من جهابذة النضال والفكر والسياسة بين المدرسين العاملين فيها؟ لقد كانت مدرسة **النجاح** محدودة الإمكانيات المادية، فهي منذ تأسيسها في 1918 وحتى اليوم مؤسسة تعليمية أهلية، وكانت منذ بدايتها بعيدة عن الشبهات التي كانت تحيط، وما زالت، بدور التعليم التبشيرية. ورغم ضآلة إمكانياتها، وبفضل العقليات المستنيرة لمدرسيها وإدارتها المتعاقبة حتى 1948، التي كان على رأسها رجال مثل **محمد عزة دروزة** و **قدري حافظ طوقان**.

حياة الشاعر

وبعد تخرجه من **مدرسة النجاح** الثانوية عيّنته إدارة المدرسة، نظراً لنبوغه، مدرّساً للغة والأدب العربي "فحوَّل مادة الدرس إلى دروس في الوطنية الهادفة، والأدب الرصين، والتربية الحقة المبنية على الإيمان والخلُق والعصامية. وكانت دروسه إلى طلابه وأحاديثه عن الجرح الفلسطيني الآخذ بالنزف .. عن تاريخ فلسطين الإسلامي المُشرق، والعربي العريق، كاشفاً زيف الإنكليز والأمريكان والصهاينة وتآمرهم المرسوم لتهويد الأرض والوطن، فاضحاً مؤامراتهم الصليبية المُقنّعَة المستمرة. كان يجاهد بالقلم والدرس والكلمة الملتزمة، بالشعر والقصيدة المعبِّرة، ويبدي استعداده للبذل والعطاء والفداء في دمه وروحه في سبيل الله

والحق ... ففتح عيون طلابه على روائع الأدب وعيون الشعر ونفخ فيهم روح الجهاد، وأضرم في قلوبهم حب الوطن"(2).

ومن بين تلاميذه كان الشاعر الفلسطيني **خالد أبو خالد**، الذي قال:" كنت تلميذاً من تلاميذ الشاعر **عبد الرحيم محمود**، ولم يكن يعلمنا الكلمة فقط، بل كان يدربنا ويلقننا القواعد العسكرية وفنون القتال...".(3)

وفي هذا السياق كتبَ عنه تلميذ آخر من تلاميذه، وهو الأستاذ **مروان راضي الطاهر**، في مقال له نشر في جريدة الأخبار المصرية في 1949: "كان يلقن تلاميذه –وحسبي أن أكون أحدهم– دروساً في الوطنية والقومية، وكان في أثناء تلك المدة مثال المعلم الصادق والمخلص لبلاده وأمته".

غير أن **عجاج نويهض**، والدكتور **محمود شلبي** و**رشيد جبرالأسعد** يتفقون في كتبهم المذكورة آنفاً على أن **عبد الرحيم محمود** التحق بمدرسة الشرطة بعد الإنتهاء من الدراسة في مدرسة النجاح، ومكث فيه لنحو سنة، ثم غادرها والتحق بالعمل في النجاح. لكن **الأسعد** ينفرد في ذكر الرواية التالية عن سبب التحاق **عبد الرحيم محمود** بسلك الشرطة ثم تركه له نهائياً: "إنخرط **عبد الرحيم محمود** في سلك الشرطة الفلسطينية المرتبط إداريا بسلطة **الإنتداب البريطاني**. إنخرط في هذه الوظيفة في فترة من فترات حياته من أجل أن يعتاش منها، ومن خلالها يقدم الخدمة لأبناء وطنه... وفي أحد الأيام، فوجِئ بطلب إدارة البوليس المتضمن ملاحقة أحد الثوار وجلبِهِ لتقديمه لسلطة الإنكليز..!!. فما كان من المجاهد الصابر، **عبد الرحيم محمود**، إلا أن يرفض الطلب بإصرار وتحدٍ، بل طلب من الثائر المعني الإنسحاب بعيداً عن الأعين والحذر...، وبعدها ترك سلك الشرطة إلى الأبد غير آسف عليه، فكان في هذا الموقف الفريد الفذ الشريف قد ضرب أروع الأمثلة في نُبل الأخلاق... أروع الأمثلة في نكران الذات والخلق الكريم العال في الإيمان والعصامية والوطنية الصادقة".

واستمر الشاعر في عمله في **النجاح** حتى نشبت **الثورة الفلسطينية الكبرى** في مايو 1936 فقدم استقالته وانخرط في صفوف المجاهدين منضماً للكفاح المسلح ضد العصابات الإرهابية الصهيونية وضد الإحتلال البريطاني. واستمرت الثورة لأكثر من ثلاث سنوات (حتى أغسطس 1938)، وهي الفترة التي أطلق فيها **عبد الرحيم محمود** عدداً من قصائده الشهيرة، وعلى رأسها قصيدة (الشهيد) التي أشرنا إليها سابقاً، والتي نُشرت لأول مرة في العدد 21 من جريدة **الأمالي**، عام 1938. واستناداً لكتاب (الشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة) **لرشيد جبرالأسعد**، كان الشاعر قد انضم للتنظيم السري لحركة المجاهدين بقيادة **عز الدين القسام**، قُبيل استشهاد هذا الأخير في 20 نوفمبر1935. ويشير **محمد عز الدين المناصره**، في كتابه المذكور آنفاً، أن الشاعر انضم بعد ذلك، أي خلال الثورة الفلسطينية الكبرى، لصفوف المجاهد الفلسطيني **عبد الرحيم الحاج محمد**، الذي استشهد لدى خوضه معركة **صانور** ضد القوات البريطانية في 29 مارس/آذار 1939. وقد أصيب **عبد الرحيم محمود** بجراح في إحدى معارك الثورة الفلسطينية الكبرى. وأشار **عبد الله سمارة** في مقال له نشر في **جريدة المحرر** اللبنانية – ملحق فلسطين- في 30 يونيو/ حزيران 1966، إلى التعاون الوثيق بين القائد **عبد الرحيم الحاج محمد** والشاعر المناضل **عبد الرحيم محمود**، مضيفاً: "كان يدير الشؤون السياسية والإدارية والإعلامية للثورة مثقفون ومجاهدون واعون على رأسهم الشاعر الشهيد **عبد الرحيم محمود** والأستاذ **ممدوح السخن**". وجاء في نفس المقال أن الشاعر **أبي**

الطيب كان مثال العسكري المطيع والجندي المخلص... ومثال الثائر الوفي الذي ينكر ذاته في سبيل الآخرين والمصلحة العامة، فاستلم قيادة فصيل من فصائل المجاهدين يتراوح عدده آنذاك، حسب تشكيلات الثوار ما بين 20 و 25 عنصرا، قادهم في عدة معارك ومواقع متحملا المسؤولية بشرف وشجاعة في اشتباطات مع القوات البريطانية والصهيونية، حتى أصيب في إحدى المعارك، فنقل جريحاً ينزف دمه، لكن لم تكتب له الشهادة، حتى تماثل للشفاء ليعاود الكرة من جديد في مجاهدة البريطانيين والمنظمات الإرهابية الصهيونية.

وبانتهاء تلك الثورة على يد جحافل الجيش البريطاني المدججة بالأسلحة الثقيلة التي وصلت تباعاً لأرض فلسطين للتنكيل بشعبها بكل أصناف العنف والظلم، وبفضل الأنظمة العربية التي امتنعت عن تقديم أي نوع من المساعدة أو المساندة للثوار الفلسطينيين، ونظراً لمطاردة سلطات الإحتلال البريطاني **لعبد الرحيم محمود** وغيره من المجاهدين، إضطر الشاعر المناضل لمغادرة **فلسطين** إلى **العراق** الشقيق، حيث أقام لمدة ثلاث سنوات. واستنادا **للمناصرة(4)**، اتصل الشاعر في **بغداد** بسماحة **الحاج أمين الحسيني**، الذي ساعده للإلتحاق **بالكلية العسكرية العراقية** حتى تخرج منها بعد سنة واحدة (1939-1940) برتبة مُلازم ثانٍ. وفي **بغداد** أيضا تعرف إلى القائد الفلسطيني **عبد القادر الحسيني**، قائد **جيش الجهاد المقدس** وبطل معركة **بني نعيم الكبرى**، عام 1938، وبطل معركة **القسطل**، التي استشهد فيها في 8 أبريل/ نيسان 1948. وتعرف الشاعر في **بغداد** أيضا إلى القائد **حسن سلامة** (1912-1948) الذي كان من كبار القادة في **جيش الجهاد المقدس**، وقد استشهد في 2 يونيو 1948 متأثراً بجراح أصيب بها قبل ذلك بيومين في **معركة رأس العين**، قرب **القدس**. وكان كل من **عبد القادر الحسيني** و**حسن سلامة** من طلبة الكلية العسكرية التي التحق بها **عبد الرحيم محمود** في العراق. واستناداً إلى **رشيد جبر الأسعد** فقد "طورد الثوار –إثر القضاء على الثورة الفلسطينية الكبرى– ولوحقوا على امتداد **فلسطين** والأقطار المجاورة، مما حدا بالمجاهدين **عبد القادر الحسيني** و**عبد الرحيم محمود** و**حسين سلامة** و**برهان العبوشي** و**سليم عبد الرحيم** للإلتجاء للقطر العراقي، مع بضع وثلاثين عنصر آخر"، أي أن الأمر كان يتعلق بهروب جماعي منظم إلى العراق، وأن كل هؤلاء المجاهدين كانوا على صلة زمالة وصداقة شخصية قبل وصولهم الأراضي العراقية.

وبعد تخرجة من الكلية العسكرية عُيّن الشاعر مدرساً للغة العربية والأدب في في مدرسة ابتدائية في حي **العشار**، في**البصرة**. وفي أبريل 1941 قامت في **العراق** ثورة **رشيد عالي الكيلاني**، واستناداً إلى **جبرا إبراهيم جبرا**، التحق **عبد الرحيم محمود** بتلك الثورة، بل وشارك بمعركة **(سن الذبّان)** التي دارت في مايو/أيار1941 بين القوات الموالية **للكيلاني** والجيش البريطاني. وإلى جانب الشاعر انضم إلى ثورة **الكيلاني** ضد السيطرة البريطانية وضد مصالحها في العراق عدد من الشخصيات الفلسطينية المرموقة من المقيمين في العراق آنذاك بما فيهم **عبد القادر الحسيني**. ولعب هؤلاء، المتمترسون على بعد 30 كيلومتر من بغداد، وبينهم شاعرنا، دوراً حاسماً في التصدي للقوات البريطانية القادمة من **الأردن** لدعم القوات المثيلة التي كانت تحاول في **العراق** إجهاض حركة **الكيلاني** الشعبية، والتي تمكنت في النهاية من تحقيق هدفها ذاك بإنهاء الثورة.

وقد عاد الشاعر الى **فلسطين** في 1941، أي في نفس العام الذي عاد فيه من **العراق** أيضا شاعر **فلسطين** الأكبر **إبراهيم طوقان** الذي كان قد انتقل في 1940 إلى **بغداد** ليعمل مدرساً في دار المعلمين، لكن اشتداد المرض عليه إضطره للعودة إلى **فلسطين** حيث توفي بعد فترة وجيزة. ولا توجد أية معلومات عن احتمال اتصال الشاعرين الصديقين في **العراق**، باستثناء ما ورد في مقال للأستاذ **مروان راضي الطاهر**(5) في جريدة **الأخبار** المصرية، في يوليو/ تموز1949، بمناسبة مرور سنة على استشهاد الشاعر. فقد جاء في ذلك المقال أن السيدة **سامية عبد الهادي**، أرملة الشاعر **إبراهيم طوقان**، قالت في معرض حديثها عن أعز أصدقاء طوقان: "كان أعز أصدقائه الشاعر **عبد الرحيم محمود** وكان أستاذه وكان رفيقه في **العراق**. والطريف أن **عبد الرحيم محمود** كان تلميذاً **لإبراهيم** وأصبح فيما بعد أستاذاً **لجعفر بن إبراهيم**".

ويتفق الفلسطينيان، الدكتور **كامل السوافيري**، في مقدمته لكتاب (ديوان عبد الرحيم محمود) الصادر في 1974، والدكتور **محمد عز الدين المناصرة**، في كتابه (عبد الرحيم محمود – الديوان والمقالات النقدية) الصادر في 1985، على ندرة المعلومات التي وصلتنا عن النشاط والنتاج الأدبي **لعبد الرحيم محمود** أثناء إقامته الطويلة في أرض الرافدين. غير أن العراقي **رشيد جبر الأسعد**، الذي يتفق معهما بشأن ندرة المعلومات حول الحقبة العراقية من حياة **عبد الرحيم محمود**، يقول في كتابه (الشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة)، الذي صدر في **بغداد** في 1985، أن الشاعر: "إلتقى في بغداد مع رجال المعرفة والشعر والأدب، فكان لشاعرنا مساجلات ثقافية وأدبية مع أدباء وشعراء، كالشاعر**معروف الرصافي**، والشاعر**محمد مهدي الجواهري**، والشاعر **جميل صدقي الزهاوي**، ولكن للأسف الآثار قليلة، والبحث جار عن قصائد وآثار أدبية وشعرية للشاعر لهذه الفترة، وإلا فأين قصائده وأشعاره طيلة قرابة أربع سنوات قضاها في العراق... هل من المعقول أن لا يوجد له سوى قصيدة واحدة هي قصيدة (حنين إلى الوطن). حتما أن له آثارا أدبية وقصائد لهذه الفترة لحضوره بعض المناسبات واللقاءات، وقصائد ألقاها هنا وهناك... سواء منها التي نشرت أم لم تنشر... خاصة قصائد لم يضمها ديوان الشاعر". وإضافة لقصيدة (حنين إلى الوطن) لا يعرف **لعبد الرحيم محمود** سوى قصيدة أخرى كتبها أثناء وجوده خارج **فلسطين**، وهي قصيدة (حجر في كثبان رمل) التي كتبها في مكان صحراوي في **بادية الشام**، عندما كان فارّاً من مطاردة السلطات البريطانية والتي عبّر فيها عن مدى شعوره بالوحدة والحيرة.

ولقد عبّر **عبد الرحيم محمود** في قصيدته (حنين الى الوطن) عن مدى حبه واشتياقه لأرض **فلسطين** وهو بعيد عنها في **العراق**، ومن بين ما يقوله فيها من روائع الأبيات:

يا بلادي أرشفيني قطرةً

كل ماء غير ما فيكِ كدر

ليت من ذاك الثرى لي حفنة

أتملّى من شذا الترب العطر

وإثر رجوعه لأرض الوطن عاد الشاعر للإلتحاق بعمله في مدرسة **النجاح** واستأنف نشر شِعره الوطني وأهازيجه الحماسية في الصحف الفلسطينية، محققاً شهرة واسعة في فترة السنوات الست الأخيرة من حياته، إلى أن صدر، في 29 نوفمبر 1947 قرارالأمم المتحدة 181 بتقسيم فلسطين لدولتين، الأولى يهودية والثانية فلسطينية، فاشتعلت المعارك بين الفلسطينيين من جهة، واليهود والمستعمر البريطاني من جهة أخرى، بينما **ترك عبد الرحيم محمود** مجدداً عمله في مدرسة **النجاح** وسافر إلى **بيروت** ومنها إلى **سوريا** حيث التحق **بجيش الإنقاذ**، بقيادة السوري **فوزي القاوقجي**، وتدرب على القتال، وعاد لفلسطين مع مقاتلي **جيش الإنقاذ**، فخاض مع سرية من **فوج حطين** معركة في قرية **بَيّار عدَس**، ثم في معركة **رأس العين** قرب طولكرم. وجاء في كتاب (النكبة) للمؤرخ والصحفي الفلسطيني **عارف العارف** (1891-1973) أن **عبد الرحيم محمود** عُين في أبريل/ نيسان 1948 آمراً للإنضباط في قوات **جيش الإنقاذ** في مدينة **طولكرم**. ولعل حماسه ومضاء عزيمته وخبرته في القتال كانت من الأسباب التي رشحته لتحمل تلك المسؤولية. وأدت مزاياه هذه لترقيته فيما بعد لرتبة ملازم أول ثم أصبح مساعداً لآمر فوج منطقة **الناصرة**، متولياً مسؤولية الدفاع عن مدينة **الناصرة** أمام الهجمات الصهيونية المتعاقبة عليها.

وكان **جيش الإنقاذ** يقاتل المحتلين البريطانيين وقوات المنظمات الإرهابية اليهودية منذ 1936، ومن كبرى معاركه آنذاك **معركة بلعا**، التي دارت في 3 يوليو/تموز 1936، وكانت من أكبر المعارك في الثورة الفلسطينية الكبرى. ومن المرجّح، رغم أنني لم أعثر على هذه المعلومة في أي مصدر، أن **عبد الرحيم محمود** كان من المجاهدين الذين شاركوا في تلك المعركة، حيث أنه كان ينتمي آنذاك –كما ذكرنا من قبل– لقوات **القائد عبد الرحيم الحاج محمد**، التي خاضت **معركة بَلعا** –وهي القرية المتاخمة لقرية **عَنَبْتا**، مسقط رأس الشاعر– جنباً إلى جنب مع قوات **القاوقجي**، وهو ما اتفقت عليه عدة مصادر، موردةً اسم القائد **عبد الرحيم الحاج محمد** جنبا إلى جنب مع اسم **القاوقجي** في قيادة تلك المعركة التي كان عدد المجاهدين فيها قرابة 300، مقابل عشرة أضعافهم من الجنود البريطانيين المدعومين بأسحلة ثقيلة و15 طائرة ألقت وابلاً لا حدّ له من القنابل والمتفجرات على المقاتلين الفلسطينيين. ووصفت **جريدة فلسطين** آنذاك المعركة كما يلي: "ما بزغت شمس هذا النهار حتى كانت الجبال تعج بالثوار الذين ألفوا جبهة حربية تمتد من **نور شمس** حتى شرق **رامين**. وقد لوحظ ان الثوار كانوا منظمين تنظيماً عسكرياً اذ كانوا منقسمين إلى فرق هجوم وفرق دفاع ومرابطين في استحكاماتهم ومعهم الاسلحة النارية والمدافع الرشاشة والبنادق السريعة الطلقات وكان يقودهم البطل السوري المعروف القائد **فوزي بك القاوقجي**، ولما علمت السلطة بنبأ تجمع الثائرين أرسلت إليهم قوة كبيرة من الجند مصحوبة بالدبابات والمدافع الثقيلة والرشاشات وعند وصولها إلى مكانهم انصبت على الجند النيران كالمطر، واشتبك الفريقان في معركة هائلة جدا، تبودل فيها طلاق العيارات النارية بكثرة، ودوت فيها القنابل، وكانت الطائرات تلقي قنابلها على الثوار بشدة، فكنا نشاهد الدخان يتصاعد من الجبال إلى السماء ونسمع دوي القنابل وأزيز الرصاص من هنا، حتى حطمت قنابل المدافع اشجار الزيتون، وهشمت الصخور الكبيرة في الجبال، وقد اشتركت في القتال 15 طيارة القت على الثائرين القنابل بدون حساب وكانت تأتي طوراً إلى المدينة وتهبط في المطار لأخذ الذخيرة أو إصلاح ما طرأ عليها من عطب، أو تأتي لإعطاء الإشارات المختلفة للجند المرابط هنا، وكانت السيارات تروح وتغدو إلى مكان المعركة ملأى بالجند المسلح كما كانت سيارات الإسعاف تذهب وتعود حاملة المصابين، وقد شاهد الأهلون الذين هرعوا إلى خارج البلدة وراقبوا حركة القتال من مكان شاهق أربع طائرات سقطت احداها في مكان

المعركة واحترقت وسقطت الثانية في جوار **عنبتا** واحترقت أيضا، وسقط الثاثة في **راس عامر** والرابعة في المطار ويعزى سقوطها -كما قيل- إلى البنادق السريعة الطلقات التي استعملها الثوار ضدها وقد نقلت طائرتان إلى **مطار الرملة** بعد تفكيكهما.....". واعترف البلاغ الرسمي البريطاني بشأن المعركة بمقتل إثنين من الطيارين واثنين من الضباط في المعركة، وأشار إلى سقوط عشرة من الفلسطينيين فيها.

وخلد التراث الشعبي الفلسطيني هذه المعركة وغيرها من معارك الثورة الفلسطينية الكبرى (1936-1939) في هذه الأهزوجة التراثية التي ما زال الفلسطينيون يذكرونها ويرددونها حتى اليوم:

فاح ريح الجنةْ يا عالم فاحْ

في معركة وادي التفاح

إستشهد فيها الفلاح

حمل السِّنجةْ مع السكينْ

وبتطويق بيت امرينْ

والثوار كانوا ستين

فين عيونك يا صلاح الدين

تشوف شجاعة المجاهدين

ومعركة بَلعا وقعةْ

كانت في يوم الجمعة

واستشهد فيها سبعة

***وراح من الجيش ملايين*(6)**

كان من الواضح، وقد اجتاز **عبد الرحيم محمود** كل هذه المراحل من حياته، التي كانت آنذاك على قاب قوسين أو أدنى من نهايتها، مدى الوعي الديني والسياسي والوطني الذي كان يتمتع به منذ نعومة أظفاره، وعبر كل تلك المراحل الحياتية الزاخرة بالتجارب الكفاحية والقتالية والعسكرية والمعاناة بعيداً عن الوطن. وما كان سفره إلى **سوريا** والتحاقه **بجيش الإنقاذ** وعودته **لفلسطين** ليخوض غمار الحرب والمعارك من جديد إلا تعبيراً كاسحاً عن قناعاته العميقة بمدى خطورة التهديد الصهيوني لهوية فلسطين ومستقبلها وسلامة أرضها وشعبها، وعن إيمانه وتصميمه وعناده في الدفاع عن وطنه، ليس فقط بالكلمة والشعر وبث القيم الدينية والوطنية بين تلاميذه، بل وبالجهاد المسلح وبذل الروح فداءاً لله والوطن. ولم يسبق لأي شاعر أو أديب فلسطيني قبله ولا بعده أن اتخذ من الجهاد المسلح نهجاً لحياته وترجمة لقصائده الوطنية ومقالاته الصحفية. وصحيح أن شعراء وأدباء فلسطينيين آخرين سقطوا شهداء على يد العدو الصهيوني في حوادث

اغتيال وهجمات إسرائيلية إجرامية متفرقة، إلا أن الأمر تعلّق في كل تلك الحالات بشعراء وأدباء لم يحملوا السلاح دفاعاً عن الوطن أو من أجل تحريره، بل جاء استشهادهم لما اعتبره العدو الصهيوني في نتاجهم الأدبي والفكري من خطورة على مشروعه الإستعماري، لما ينطوي عليه ذلك النتاج من إذكاء لروح الوطنية والتضحية والفداء لدى جماهير الشعب الفلسطيني والعربي، وهو في الواقع الدور الأساس المنوط بالشعراء والكُتاب لدى كل شعب يعاني من الإحتلال والإضطهاد والعنصرية والتطهير العِرقي عبرالإبادة والتهجير. وكان **عبد الرحيم محمود** شاعراً استثنائياً لما توفر له من عناصر الثقافة والرجولة، فإضافة إلى التعليم المدرسي كانت لديه أيضاً الثقافة الدينية العميقة التي اكتسبها في دار أبيه منذ نعومة أظفاره، والثقافة التاريخية والإجتماعية واللغوية والأدبية وصولاً إلى الثقافتين السياسية والعسكرية وإلى التدريب والخبرة العسكرية في ميدان المعركة.

وفي ذلك يقول **رجاء النقاش**، الناقد الأدبي المصري الراحل، في كتابه (محمود درويش، شاعر الأرض المحتلة) الصادر في القاهرة في 1969:"ونجد **عبد الرحيم محمود** في شعره كما في حياته نموذجاً حياً لوجدان المقاومة العربية الذي تربى في قلب ثورة 1936، ولم يكن يفرّق بين الفن والعمل، فكان شعره نضالاً، وحياته نضالاً، وقضيته الأولى والأخيرة هي تحرير فلسطين قبل أن تسقط في قبضة المأساة، ولقد أدى الفارس النبيل رسالته حتى آخر قطرة من الدم، فمات شهيداً لا يرى غير الإستشهاد خلاصاً من المحنة".

إستشهاده في معركة الشجرة

يُعبّر**عبد الرحيم محمود** في قصيدته الخالدة (الشهيد)، التي كتبها قبل عشر سنين من استشهاده، عن رغبته الصادقة بالفوز بالشهادة في سبيل الله والوطن، وليس هناك أبلغ أسلوب في التعبير عن تصميمه بتقديم روحه فداءاً **لفلسطين** عن قوله:

لعمرك إني أرى مصرعي

ولكن أغذ إليه الخطى

أرى مصرعي دون حقي السليب**(7)**

ودون بلادي هو المبتغى

إلى أن يقول:

فكيف اصطباري لكيد الحقود

وكيف احتمالي لسوم الأذى

أخوفاً وعندي تهون الحياة

وذلاً وإني لربّ الإبـا

وتصديقاً لرغبته الصادقة تلك، ما رواهُ صديقهُ الشاعر **عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)** في كتابه (كفاح عرب فلسطين)(8) يقول **الكرمي**: "ويأبى القدر إلا أن يحقق الميتة التي تمناها الشاعر الفارس، ففي حوالي منتصف 1948، ولم يعد يسمع في **فلسطين** إلا صدى طلقات متفرقة في **لواء الجليل**، كنتُ ماراً بجانب **نهر بردى** في **دمشق** وإذ بالشاعر الفارس **عبد الرحيم محمود** أمامي. وقفنا وتحدثنا طويلاً، وأخبرني أنه يقيم في فندق الجمهورية **بالسنجقدار**. ثم افترقنا وأنا معجب بهذه الفتوة العارمة رغم الأربعين عاما التي يحملها على كتفيه(9) وهذه الثورة التي لا يزال يطل وجهها من عينيه... ومضى ما يقرب من شهر، ثم عدتُ وسألت عن **عبد الرحيم محمود** في الفندق فقالوا: لقد ذهب إلى فلسطين. وفي عصر يوم كئيب دخل علي صديق لم اره بعد النكبة، قال: جئت أعزيك **بعبد الرحيم**، لقد سبق الشهداء إلى الجنة، فذُهلت، وأتمّ الصديق حديثه وقال: لم تُطق نفس **عبد الرحيم** أن يبقى خاملاً في **دمشق**، فالتحق بفلول **جيش الإنقاذ**، كضابط في جبال **الجليل**، وحصلت فتنة بين أهالي **الناصرة**، من هذه الفتن الطائفية التي ما زالت تفتُّ في عضدِ الأمة العربية، فذهب إلى **الناصرة**، وأصلح ذات البين، وطلبوا منه أن يتناول الغداء عندهم فأبى وقال: لا أستطيع البقاء لأن هناك في **قرية الشجرة** تدور معركة بيننا وبين الغاصبين ورفاقي ينتظرونني، ثم ودعهم وسار إلى المعركة وسقط شهيداً".

وفي مقال نُشر في **ديوان العرب.كوم (diwanalarab.com)** في 24 يوليو/ تموز2011، يَنسب الكاتب الفلسطيني **توفيق العيسى** للشاعر الفلسطيني **مفلح طبعوني** (1949)، المقيم في **الناصرة**، قوله حول تلك الزيارة **لعبد الرحيم محمود** للناصرة: **"لعبد الرحيم محمود** منزلة خاصة في **الناصرة** تحديداً، لعدة أسباب، والرئيسي منها أنه عاش في **الناصرة** خاصة فترة معارك الـ 48 وقبلها، وأصدقاؤه الشخصيون منها. في تلك الفترة تدخّل **عبد الرحيم محمود** لإطلاق سراح شباب من **سجن المسكوبية** في **الناصرة**، منهم **حسين أبو أسعد** و**صليبا خميس**، ثم انطلق لمعركة **الشجرة** من مطعم "الجنينة" في **الناصرة**، وهناك من يحبون **عبد الرحيم محمود** بدرجة حبهم **لتوفيق زيّاد**، وضريحه في **الناصرة** المجاور لضريح **زيّاد**، يُزار من قبل أغلب المثقفين والمهتمين وبشكل دائم".

إضافة لهذا كله علينا أن نتذكر أن الشاعر كان قد أصيب بجراح في إحدى المعارك التي خاضها إبان الثورة الفلسطينية الكبرى، ونقل من ساحة المعركة ينزف دماً، إلى أن تماثل للشفاء. ولم تثنه تجربته المؤلمة تلك عن مواصلة مسيرته في الكفاح المسلح، وإيمانه بأنها الطريقة الوحيدة لتحرير الوطن حتى لو كلفه ذلك حياته.

وقرية **الشجرة** من أعمال **طبرية**، وحسب الإحصاء الرسمي الذي أجرته حكومة فلسطين كان يسكنها في 1945 نحو 770 فلسطيني. وكانت هناك مستعمرة يهودية سميت (إيلانيا سَجير) أقيمت في 1902 على مقربة من القرية(10)، وكان عدد سكانها في السنة المذكورة نحو 241 مستعمر صهيوني. وقامت المنظمات الإرهابية اليهودية بتحصين تلك المستعمرة لوقوعها بين مجموعة من القرى الفلسطينية هي: **الشجرة** و**لوبيا** و**طرعان** و**كفر كنا** و**عين ماهل** و**عرب الصبح** و**الدياجين**. وعلى مقربة من هذه القرى أقام المهاجرون الصهاينة عدداً من المستعمرات، وقد وقع الكثير من المصادمات بين هذه القرى الفلسطينية من جهة

والصهيونية من جهة أخرى، ودارت معظم تلك الإشتباكات بين قرية **الشجرة** ومستعمرة **إيلانيا سجيرا**، واتسمت تلك الإشتباكات بالعنف وسقط فيها مئات من الشهداء الفلسطينيين والقتلى من المستعمِرين. ودَمّرت القوات الإسرائيلية قرية **الشجرة** بالكامل إثر نكبة 1948، فكانت واحدةً من أكثر من 400 قرية فلسطينية عانت من نفس المصيرعلى يد المحتلين. وأدى سقوط قرية **الشجرة** والقرى المجاورة لها في يد الجيش الصهيوني إلى احتلاله فوراً بعد ذلك لمدينة **الناصرة** ولكامل منطقة **الجليل**.

واستناداً إلى **الموسوعة الفلسطينية** (هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، 1984) فإن **معركة الشجرة**، التي استشهد فيها **عبد الرحيم محمود**، كانت من أهم المعارك التي دارت في حرب 1948 بين الثوار الفلسطينيين والجيش الإسرائيلي الذي تم تشكيله من قوات المنظمات الإرهابية الصهيونية لا سيما **هاغانا** إضافة لمنظمات **شتيرن** و**إرغون وبَلماخ**. وكانت جبهة قرية **الشجرة** والقرى المتاخمة لها على درجة كبيرة من الأهمية للدفاع عن مدينة **الناصرة**، وأدى سقوط هذه القرى في أيدي المحتلين إلى احتلالهم **للناصرة**. وإضافة لذلك فإن قرية **الشجرة** كانت تشكل عقدة مواصلات حيوية للجانبين الفلسطيني والصهيوني كليْهما.وكانت القوات الصهيونية قد بدأت الهجوم على قرية **الشجرة** في 9 يونيو وفي اليوم التالي كانت قوات **جيش الإنقاذ** قد دحرت الهجوم حتى وصل المقاتلون العرب إلى جدران مستعمرة **إيلانيا سجيرا** التي كانت النيران قد اندلعت فيها نتيجة للقصف الذي تعرضت له من الجانب العربي. وفي تلك الأثناء أعلن وقف إطلاق النار تنفيذاً لاتفاقية **الهدنة الأولى** وعندما كانت قوات **جيش الإنقاذ** لا تبعد سوى 9 كيلومترات عن مدينة **عكا**. وتميزت فترة **الهدنة الأولى**، والتي امتدت من 11 يونيو/ حزيران إلى 9 يوليو/ تموز من ذلك العام، بتعاظم القدرة العسكرية الصهيونية، وبوصول الإمدادات الضخمة، حتى بلغ عدد أفراد الجيش الإسرائيلي 60 ألف مقاتل، مما مكّن العدو من تنظيم عدد من الألوية الجديدة المزودة بمختلف أنواع الأسلحة. ولم تكن قوات **جيش الإنقاذ** تتجاوز آنذاك ثلاثة آلاف رجل. وفي 8 يوليو 1948، أي قبل انتهاء فترة الهدنة بيوم واحد، انطلقت القوات الصهيونية بهجوم قوي على قرية **الشجرة** وامتدت ساحة العمليات لتشمل عدداً من القرى المجاورة. وظهرت في معركة **الشجرة**، ولأول مرة في حرب **فلسطين** عام 1948، طائرات حربية ومدفعية ثقيلة إسرائيلية. ورغم تتابع الهجمات الإسرائيلية تمكنت قوات **جيش الإنقاذ** ومجاهدون ينتمون إلى فصائل فلسطينية أخرى من صد تلك الهجمات في قطاع **الشجرة** واستعادة ما خسره العرب من مواقع. واستمرت المعركة دون انقطاع، وبدأت الذخائر تتناقص بين أيدي القوات العربية، فيما أخذت قوات العدو تصعِّد شدة القتال على جبهة **الشجرة** وتبذل جهوداً مستميتة لطرد القوات العربية من **الشجرة**، وراحت ترسل النجدات وقوات الدعم بدون توقف. واستمرت المعركة بشكل متقطع حتى كان يوم 13 يوليو عندما استجمع الجانب العربي قواته في هجوم مضاد استخدم فيه عدد من المصفحات وقطع المدفعية، واظهرت القوات العربية شجاعة نادرة رغم أنها كانت مستنزَفة القوى بعد صراعها المستمر طيلة الستة أيام السابقة، وتمكّنت من رد القوات الصهيونية وتشتيتها والتقدم حتى **الشجرة** لنجدة من كان فيها من مقاتلين عرب، وسط كثافة نارية غزيرة من جانب العدو. ومن المرجح أن **عبد الرحيم محمود**، الذي كان في ذلك الوقت أحد المقاتلين المرابطين في **الشجرة**، سقط جريحاً نتيجة لتلك النيران. واستناداً لعدة روايات متشابهة وردَت في كُتب تناولت الظروف التي أحاطت باستشهاد الشاعر، فإن إصابته كانت بشظايا من قذائف المدفعية الإسرائيلية اخترقت عنقه وفكّه الأسفل. وتلقى الجريح الإسعافات الأولى في المستشفى

الميداني في ساحة المعركة ثم جرى نقله على وجه السرعة إلى مدينة **الناصرة** من أجل إسعافه وإنقاذ حياته، ولكنه فارق الحياة قبيل الوصول إلى المستشفى، ودفن في **الناصرة** التي لم تكن قد سقطت في يد الصهاينة حتى ذلك الحين.

وكُلل ذلك الهجوم العربي بالنصر، مع أن قوات **جيش الإنقاذ** ورفاقهم التابعين لفصائل أخرى تكبّدت في ذلك اليوم خسائر كبيرة. إلّا أن القوات الصهيونية أعادت تنظيمها وتلقّت المزيد من الدعم واستخدمت الطيران والمدفعية الثقيلة بكثافة حتى تم لها احتلال **الشجرة** في 18 يوليو/ تموز. أي أن معركة **الشجرة** استمرت لعشرة أيام بلياليها، وقد تم تلخيصها هنا باختصار شديد للنص الوارد في **الموسوعة الفلسطينية**.

ومن ناحية أخرى تناقل عدد ممن تطرقوا لسيرة الشاعر ولظروف استشهاده أنه كان يردد أثناء نقله إلى المستشفى بيتيْ شعر ركيكيّ المعاني يقول فيهما:

إحملوني إحملوني

واحذروا أن تتركوني

وخذوني لا تخافوا

وإذا مت ادفنوني

واستنادا **للمناصرة** فإن أول من ذكر هذين البيتين من الشعر هو **عارف العارف**، صاحب كتاب (النكبة). وقال **المناصرة** أنه يؤيد ما ورد في كتاب (روحي على راحتي: ديوان عبد الرحيم محمود) للشاعر والمفكر الفلسطيني **حنا أبو حنا** (1828-2022)[11] الذي دعا إلى ضرورة شطب هذين البيتين من الطبعات المختلفة لديوان **عبد الرحيم محمود**. وأضاف المناصرة أن الشك بصحة انتماء البيتين للشاعر الكبير يعود إلى المناسبة التي يقال أنهما قيلا فيها، أي أثناء نقل الشاعر إلى المستشفى مصاباً بجراح بالغة الخطورة، "أي قبل أن يفارق الحياة بساعات وربما بدقائق، إذ كيف يمكن لإنسان يموت أن يفكر في نظم الشعر، وضبط الوزن، وهو على مِحَفّة الموت"[12]. غير أن مجرد قراءة البيتين لمرة واحدة من طرف أي عارف بشعر **عبد الرحيم محمود** من شأنها أن تكون كافية لاستبعاد أن يكون شاعرنا هو صاحبهما أو أن تكون له أدنى علاقة بهما، إذ أنهما لا يحتويان على أي مضمون فكري أو شِعري، ولعلَّ كلاماً فارغاً مثل (وإذا متُّ ادفنوني) لا يُمكن لأي شاعر، مهما كان نكِرة، أن يرضى أن يُنسب له. ويمكن أن نقول نفس الشيء عن باقي كلمات البيتيْن.

كان يرى استشهاده كما كان يرى ضياع فلسطين

كان **لعبد الرحيم محمود** رؤية مستقبلية نافذة –وهي موهبة يخص الله بها من بين الشعراء نفراً منهم، ومن بينهم أيضاً **إبراهيم طوقان**– فيما يتعلق بالكارثة التي كانت سحبها السوداء تنعقد وتتراكم في الأفق الفلسطيني، مؤرقة مضجع شاعريّ **فلسطين** الكبيريْن أضعاف ما كان لها من أثر على القادة والسياسيين المحليين في تلك المرحلة القاتمة من التاريخ العربي عامة والفلسطيني خاصة، والذين صبَّ الشاعِران،

إبراهيم و**عبد الرحيم**، جام غضبهم عليهم ، بسبب خلافاتهم الداخلية المستمرة، واعتمادهم الدائم في اتخاذ القرارات على الزعامات العربية ذات المواقف الفاترة أو المتواطئة مع المشروع الصهيوني والتي كانت في النهاية سبباً حاسماً في حدوث الكارثة. وهكذا يقول **عبد الرحيم محمود** في قصيدته (إلى كل متهاود) التي تعود لعام 1937:

يا شعبُ يا مسكينُ لم

تنكَبْ بنكبتِكَ الشعوبُ

قلَّدتَ أمركَ مَن بِهِمْ

لا يَرجعُ الحقُّ الغصيبُ

لهَفي عليْكَ ألا ترى

يا شعبُ حولكَ ما يريبُ

وبالمقابل نجد أن ديوان ثالث الشاعريْن الفلسطينيَيْن، **أبي سلمى**، الصادر عن **دار العودة** في **بيروت** في 1978، يخلو من أي رؤية مستقبلية في شعر ما قبل النكبة، كما يخلو من انتقاد السياسيين والقادة الفلسطينيين في تلك الحقبة، بينما يصبُّ جام غضبه على ملوك العرب، بالإسم، واحداً بعد الآخر، كما في قصيدته، (لهب القصيد).

ولم تقتصر الرؤية المستقبلية **لعبد الرحيم محمود** على استشعار نهايته المحتومة، شهيداً في سبيل الله والوطن، بل لربما كان "يغذ الخطى لمصرعه" اقتناعا كاملاً منه بأن **فلسطين** آيلة للسقوط لا محالة في براثن الصهيونية، وهو ما ترفض نفسه الأبية وروحه الجبارة أن تقبله، فكان يشعر ويعلم أن "مصرعه" هو الحل الوحيد الباقي له، وكان مُصِرّاً –كما أسلفنا– على تحقيق مُناه، بدلاً من العيش الذليل والعبودية تحت استعمار وحشي أو مشرداً بلا كرامة، وهو بالذات ما وقع في 1948 وحتى اليوم للشعب الفلسطيني.

وأثبت **عبد الرحيم محمود** بالدليل القاطع رؤيته المستقبلية النافذة تلك في قصيدته الشهيرة (نجم السعود) التي قدمها بين يدي **الأمير سعود بن عبد العزيز**، ولي عهد **المملكة العربية السعودية** آنذاك، عندما زار فلسطين، ومرّ **بعَنبتا**، قرية الشاعر، في 14 أغسطس/آب 1935، ونزل في **القدس** ضيفا على مفتي فلسطين الشيخ **أمين الحسيني**. واستقبل الشعب الفلسطيني وقادته والمفتي **الأمير سعود** إستقبالاً شعبياً جماهيرياً وبحفاوةٍ بالغة، إذ رؤوا في تلك الزيارة قبَس أملٍ بدعمٍ عربي قادم لربما ينقذ البلاد مما كانت فيه من حالة استعمارٍ بريطاني وصهيوني مُطبِقٍ وخانق وعنصري وعنيف وتوسّعي. وتكررت الإستقبالات الشعبية للأمير السعودي في **اللد** و**الرملة** و**يافا** و**طولكرم** و**نابلس** و**رام الله** و**بيت لحم**. وصلى الأمير صلاة الجمعة في **المسجد الأقصى**، وخرج المصلون في نهاية الصلاة في مظاهرة عارمة ابتهاجاً بزيارته، واحتشد الآلاف في صحن **مسجد الصخرة** المشرّفَة في حفل تصدره الأمير وألقى فيه عدد من العلماء والقادة الفلسطينيين خطباً حماسية. وهناك روايتان حول المكان الذي ألقى فيه **عبد الرحيم محمود** قصيدته (نجم السعود)، إذ يقول **كامل السوافيري** أنه ألقاها في **عَنَبتا**، عند استراحة **الأمير سعود** فيها، بينما يؤكد **إميل**

الغوري(1907-1984) في كتابه (فلسطين عبر ستين عاما) الصادر عن **دار النهار** في **بيروت** عام 1972، أن الشاعر ألقى قصيدته تلك في الحفل المقام في صحن **مسجد الصخرة** بعد صلاة الجمعة (16 أغسطس/آب 1935). إلا أن النشرة الثانية من (أعلام الفكروالأدب)، الصادرة عن مكتبة بلدية مدينة **نابلس** في 1975، قالت في الصفحة 27: **"**ألقيت هذه القصيدة في قرية **عنبتا** بين يدي سمو الأمير **سعود بن عبد العزيز**، الذي مرّ بها إلى **القدس** في الرابع عشر من شهر أغسطس/ آب سنة 1935**"(13).**

وفيما يلي نص هذه القصيدة الفريدة في الأدب الفلسطيني ما قبل النكبة وضوحاً في استقراء المستقبل وتوقعاً للكارثة وحزناً وتأنيباً للعرب على تقصيرهم تجاه فلسطين:

نَجمُ السُعودِ وَفي جَبينِكَ مَطلَعُهْ

أَنّى تَوَجَّهَ رَكبُ عِزِّكَ يَتبَعُهْ

سَهلاً وَطِئتَ وَلَو نَزَلتَ بِمَحمَلٍ

يَوماً لِأَمرَعَ مِن نُزولِكَ بَلقَعُهْ

وَالقَومُ قَومُكَ يا أَميرُ إِذا النَوى

فَرَقَتهُ آمالُ العُروبَةِ تَجمَعُهْ

مالوا إِلَيكَ وَكُلُّ قَلبٍ حَبَّةٌ

يَحدو بِهِ شَوقاً إِلَيكَ وَيَدفَعُهْ

يا ذا الأَميرِ أَمامَ عَينِكَ شاعِرٌ

ضُمَّت عَلى الشَكوى المَريرَةِ أَضلُعُهْ

المَسجِدُ الأَقصى أَجِئتَ تَزورُهُ

أَم جِئتَ مِن قَبلِ الضَياعِ تُوَدِّعُهْ

حَرَمٌ تُباحُ لِكُلِّ أَوكَعَ آبِقٍ

وَلِكُلِّ أَفّاقٍ شَرِيدٍ أَربُعُهْ

وَالطاعِنونَ وَبورِكَت جَنباتُهُ

أَبناؤُهُ الظِئَم بِطَعنٍ يوجِعُهْ

وَغَداً وَما أَدناهُ لا يَبقى سِوى

دَمعٍ لَنا يَهمي وَسِنٌّ نَقرَعُهْ

وَيُقرِّبُ الأَمرَ العَصيبَ أسافلٌ

عَجِلوا علَينا بِالَّذي نَتَوَقَّعُهْ

قَومٌ تَضِلُّ لَدى السَدادِ حَصاتُهُ

وَيُسَيطِرُ العادي علَيهِ وَيُخضِعُهْ

شَكوى وَتَحلو لِلمُضيمِ شَكاتُهُ

عِندَ الأَميرِ وَأَن تَرَقرَقَ أَدمُعُهْ

سرِ يا أَميرُ وَرافَقَتكَ عِنايَةٌ

نَجمُ السُعودِ وَفي جَبينِكَ مَطلَعُهْ

وليس بمستوى هذه القصيدة في استشفاف المستقبل بنظرة ثاقبة إلا قصيدة **إبراهيم طوقان**، المتوفى قبل النكبة بسبع سنوات، (أمامك أيها العربي يوم) والتي يمكن تطبيقها على يومنا هذا بشكلٍ مدهش، وليس فقط على نكبة 1948، ويقول فيها:

أمامَك أيُّها العربيُّ يومٌ

تشيبُ لهولهِ سودُ النواصي

وأنت كما عهدتُكَ لا تُبالي

بغير مظاهِرِ العَبَثِ الرّخاصِ

مصيركَ بات يَلْمسُه الأَداني

وسار حديثُهُ بين الأَقاصي

فلا رَحْبُ القصور غداً برحبٍ

لساكِنها ولا ضيق الخصاصِ

لنا خصمان ذو حوْلٍ وطوْلٍ

وآخر ذو احـتيالٍ واقـتِـناصِ

تواصوْا بينهـم فـأتى وبالاً

وإذلالاً لنا ذاك الـتواصي

منـاهِـجُ للإبـادةِ واضحـاتٌ

وبالحُسنى تُـنفـّـذ و الرصاصِ

تراثه الشعـري

إستشهد الشاعر **عبد الرحيم محمود** عندما كان في أوج شبابه، في سن الخامسة والثلاثين سنة، بكامل صحته وعنفوانه، ولم يكن قد التفت للعمل على جمع أعماله الشعرية والأدبية، وجاءت وفاته وأبناءه الثلاثة في سن الطفولة، بينما انهارت الحالة الصحية والعقلية لزوجته من شدة الصدمة التي أصابتها بفقدان زوجها **(14)**. وتَزامَن ذلك مع سقوط **فلسطين** في يد المحتلين الصهاينة وإجبار الغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني على الهجرة للبلدان المجاورة، مما أدى إلى انهيار شبه كامل للبنية الإجتماعية والثقافية والإقتصادية الفلسطينية ، بما في ذلك التراث الفكري والأدبي والعِلمي، لا سيما وأن المحتلين لم يكتفوا بنهب المنازل والممتلكات الخاصة، بما فيها المكتبات، بل ونهبوا أيضا كافة محتويات المرافق والمنشآت العامة، بما فيها المكتبات أيضاً. ولعل **عبد الرحيم محمود** كان من أشد شعراء وكُتاب **فلسطين** تضرُّراً بكل ذلك، لدرجة ضياع نسبة كبيرة من تراثه الشعري.

وهكذا، لم يكن يُعرف من شعر **عبد الرحيم محمود** في السنوات الأولى بعد نكبة 1948 إلا جزء صغير منه، وكانت مهمة جمع قصائده غاية في الصعوبة لا سيما بسبب إغلاق الصحف الفلسطينية التي كانت تنشر قصائده. ويتعلق الأمر بإغلاقٍ قسري لتلك الصحف، وسط عدوان مسلح صهيوني وهمجي واسع النطاق، لم يتح أي فرصة لإنقاذ محتويات تلك الصحف من أرشيفات أو نُسخ. ويقول **كامل السوافيري** في كتابه المذكور: "وإزاء تلك الصعوبات توجهت برسالة إلى الشاعرة **فدوى طوقان** راجياً منها أن تمدني بما تستطيع من شعر الشاعر، وقد تفضلت مشكورة فأرسلت لي في 14 سبتمبر 1950 جزازات من الصحف التي كانت تصدر في **فلسطين** تتضمن بعض قصائد للشعراء **عبد الرحيم محمود** و**كمال ناصر** و**محمود الحوت** و**سعيد العيسى** كانت تحتفظ بها لنفسها، وكانت هذه القصائد قد نشرت في الصحف الفلسطينية التي كانت تصدر قبل الكارثة وهي **فلسطين – الدفاع - الصريح – الأخبار"**. ويذكر **السوافيري** أن أول ديوان من الشعر الفلسطيني صدر بعد النكبة كان أول ديوان للشاعرة **فدوى طوقان**، الذي نشرته **مكتبة مصر**، في **القاهرة**، في 1952.

واستنادا إلى نفس المصدر، **ديوان عبد الرحيم محمود، للسوافيري**، الصادر في 1974، فقد أقيم حفل تأبين للشاعر في **عمّان** في 14 سبتمبر/أيلول 1956، ثم تولت لجنة مهمة جمع قصائد الشاعر وتنسيقها وإصدارها في ديوان. وتألفت تلك اللجنة من ثلاث شخصيات هي الكاتب **توفيق أبو شريف**(1914-2002)

والسياسي **عادل زواتي** (1920-1984)[15] والأديب **عيسى الناعوري** (1918-1985). "وتم ذلك فعلا وأصدرت اللجنة ديوان الشاعر مطبوعاً في **عمّان** سنة 1958، وكان ذلك عملا من أجلِّ الأعمال". وخُصِّص ريع تلك الطبعة لمساعة أبناء **عبد الرحيم محمود** الثلاثة. ويتابع **السوافيري** شارحاً آلية عمل تلك اللجنة، كما وردت في الكلمة التي قدمت فيها تلك اللجنة لذلك الديوان، والتي جاء فيها، في **البند الخامس**: "ولم تكن المهمة سهلة (يعني مهمة جمع قصائد الشاعر) فقد كانت تقع في أيدي أعضاء اللجنة عدة نسخ من القصيدة الواحدة أحيانا وكثيراً ما كانت الأبيات تختلف بين كل نسخة وأخرى من حيث عدد الأبيات وترتيبها وعباراتها. وكان على اللجنة أن تأخذ من بين بينها مل تراه أصوب من سواه". وورد في **البند السادس** من تلك الكلمة: **"ونود أن نعترف هنا أن اللجنة لم ترَ من الصواب أن تجمع في هذا الديوان كل قصائد الشاعر الشهيد، ولا حتى القسم الأكبر منها، ولم ترَ كذلك أن تنشر كل قصيدة له بأكملها، بل آثرت أن تترك ما تجده ضعيف الصياغة أو المعنى سواء أكان ذلك الضعف في قصيدة كاملة أو في أجزاء أو أبيات من القصيدة. وهكذا اجتمع في هذا الديوان أحسن القصائد التي نظمها عبد الرحيم محمود وأمتنها صياغة وأجودها معاني، وأدلها على روح عبد الرحيم القوية المجاهدة المحبة للجمال والعدالة والإنسانية".**

وانتقد **عز الدين المناصرة** هذه الطبعة الأردنية، مع اعترافه بأنها شكلت الإلتفاتة الأولى لشعر **عبد الرحيم محمود**، وتركز انتقاده في المقام الأول على ما اعتبره انطباعاً سلبياً أعطاه ذلك الديوان حول شخصية **عبد الرحيم محمود** الشعرية، وأضاف: "فالقصائد المنشورة تعطي انطباعا سلبياً بأن **عبد الرحيم محمود** ظل طيلة الفترة من صدور الديوان عام 1958 وحتى عام 1988، أقل أهمية من زميليْه. وأعترف أنني من الذين تأثروا بهذا الإنطباع، إذ كنت أعتبر أن **عبد الرحيم محمود** أقل أهمية من **إبراهيم طوقان** و**أبي سلمى** مثلا من الناحية الشعرية". واتهم **المناصرة** اللجنة، الثلاثية الأعضاء، التي أشرفت على إصدار طبعة **عمّان** بأنها مارست الرقابة على شعر **عبد الرحيم محمود**، فيقول:" لقد مورست **(الرقابة)** على شعر **عبد الرحيم محمود** أكثر من مرة: مرة حين كان أصدقاء **عبد الرحيم محمود** يحاولون نشر بعض قصائده في الخمسينات، حيث كانت الرقابة على الصحف تحذف أبياتاً وتجيز أبياتاً أخرى. وحدثت الرقابة مرة أخرى حين مارست **لجنة التكريم الأردنية** عام 1958 حقاً ليس لها، حيث مسحت القصائد بالحذف أو بالتشطيب. وهذه التشطيبات بخط أحد أعضاء اللجنة، وأعتقد أنه صديقنا **عيسى الناعوري**. كما قامت اللجنة بإخفاء قصائد هامة وقوية جمالياً، بينما نشرت قصائد أقل قوة". وأورد **المناصرة** نص **البند السادس** -الذي أوردناه من قبل- من كلمة تلك اللجنة الثلاثية التي نُشرت كمقدمة لديوان عام 1958، ليدلل على ممارسة اللجنة الرقابة على شعر **عبد الرحيم محمود**، وليؤكد أنه حصل على النصوص التي قامت اللجنة بحذفها وأن تلك النصوص "تفضح سر الحذف وأسبابه وتؤكد عكس ما تزعمه اللجنة عام 1958، فقد تم الحذف لأسباب مزاجية شخصية. والأهم من ذلك تم الحذف لأسباب سياسية وأيديولوجية، وتم ذلك انطلاقاً من مراعاة اللجنة للظروف السياسية في **الأردن** في عام 1958، ولكن هذه المراعاة جاءت للأسف على حساب الأمانة العلمية، وعلى حساب تراث الشاعر والشهيد". وأبدى المناصرة أسفه على إصرار "صديقي الأستاذ **عيسى الناعوري** عام 1985، أي بعد 27 سنة من الخطأ، على تبريراته وأسبابه، حيث يقول:(... فلم تشأ اللجنة أن تقدم ديواناً ضخماً يحوي الغث والسمين[16])".

وكان **السوافيري** –وقبله الأديب الدكتور **ناصر الدين الأسد**، إستناداً **للسوافيري**– في كتابه (ديوان عبد الرحيم محمود) قد سبق **المناصرة** في الإشارة إلى هذه الناحية من طبعة 1958:"ولسنا وحدنا الذين تساءلنا عما إذا كان من حق اللجنة التي اختارت قصائد الديوان أن تثبت ما استجادت وتستبعد ما استضعفت في المعنى أو الصياغة. فقد تساءل صديقنا العالم الأديب الدكتور **ناصر الدين الأسد** وهو يترجم للشاعر **عبد الرحيم محمود** عما تساءلنا عنه وقال ما نصه: "ولا شك أن للجنة هدفا توخته فوفت به، ولكننا مع ذلك لا نملك أنفسنا من التساؤل: هل من حق من يتصدى لجمع ديوان شاعر أن يحكم ذوقه ورأيه في شعره فيحذف منه ما يستضعفه، ويثبت منه ما يراه جديرا بالإثبات؟ ثم ما هي المقاييس النقدية التي وزن بها أعضاء اللجنة هذا الشعر؟ وعلى أي أساس حكموا على بعضه بأنه ضعيف الصياغة أو المعنى سواء أكان ذلك الضعف في قصيدة كاملة أو في أجزاء أو أبيات من القصيدة؟".

ولم تسلم طبعة الدكتور **كامل السوافيري** (1974) من النقد اللاذع، والمُبالَغ به، من طرف الدكتور**عز الدين المناصرة**، إذ قال فيها: "أسوء ما في هذه الطبعة –التي أشرف على إصدارها **الإتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين** في **بيروت**– هو مقدماتها الكثيرة وغير المفيدة على الإطلاق، والتي تزيد على ست مقالات". وذكر **المناصرة** في معرض نقده الممزوج بالسخرية أن **السوافيري** لم يضف سوى 68 بيتاً للطبعة الأردنية، التي تكونت من 428 بيتاً من شعر **عبد الرحيم محمود**، وذلك بعد 16 عاماً من صدورها.

وإضافة إلى هاتين الطبعتين من شعر**عبد الرحيم محمود** وسيرته، صدرت طبعات أخرى لاحقاً، يذكرها **عز الدين المناصرة**، وهي كما يلي:

طبعة **مكتبة بلدية نابلس** (1975) وتحتوي على 658 بيتاً من شعر **عبد الرحيم محمود**.

طبعة **نافع عبد الله** (1979) صدرت في **دبي**، وتحتوي على 731 بيتاً.

طبعة **حنا أبو حنا** (1985) صدرت في **الطيبة** (فلسطين المحتلة) وتحتوي على 913 بيتاً.

طبعة **عز الدين المناصرة** (1988) صدرت في **دمشق** وتحتوي على 1874 بيتاً.

طبعة **عز الدين المناصرة** (1993) صدرت في **عمّان**، وتحتوي على 1964 بيتاً.

وما زال هناك باحثون يتحرون العثور على المزيد من أعمال الشاعر الفلسطيني الكبير في الصحف الفلسطينية التي كانت تصدر في الفترة من 1930 إلى 1948، وفي المجلات الأدبية التي كانت تصدر في **القدس** و**بيروت** و**دمشق** و**بغداد**.

(1) (عبد الرحيم محمود شاعرا ومناضلا) للدكتور **محمود الشلبي**، عمّان، 1984.

(2) كتاب (الشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة) **لرشيد جبر الأسعد**- مطبعة الماني – **بغداد** – 1985 .

(3) كتاب (عبد الرحيم محمود – الديوان والمقالات النقدية) **محمد عز الدين المناصرة** – دار جرير- الأردن- 2009.

(4) كتاب **عز الدين المناصرة** عن **عبد الرحيم محمود** صدر أولا عن **دار الجليل** للطباعة والنشر والتوزيع، في **دمشق**، في 1988، تحت عنوان: **الأعمال الكاملة للشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود (القصائد-المقالات)**، في 224 صفحة. وتحتوي على 1874 بيتا من شعر **عبد الرحيم محمود**. وصدرت الطبعة الثانية في **عمّان** في 1993، وتحتوي على 1993 بيتاً. وفي 2009 صدرت طبعة جديدة، عن **دار جرير**، في **عَمّان**، في 256 صفحة، تحت عنوان: **عبد الرحيم محمود – الديوان والمقالات النقدية**.

(5) **مروان راضي الطاهر** كان تلميذاً **وصديقاً لعبد الرحيم محمود**. وكتب**عز الدين المناصرة** أنه عندما كان يجمع تراث الشاعر من قصائد، ليضع كتابه عنه الذي صدر في 1988، كان يثق بالدرجة الأولى بمخطوطات قصائد **لعبد الرحيم محمود** كُتبت بخط **مروان راضي الطاهر** في حالة عدم العثورعليها بخط الشاعر.

(6) مقطوعة من أهزوجة تراثية ترد بروايات واختلافات من مصدر لمصدر، وقد أوردتها هنا كما كنت أسمعها لسنوات طويلة من فم والدي **عبد الرحيم وظيف العلمي** رحمه الله (1924-2016) الذي كان من بين المطرودين من مدينة **اللد** مع أفراد عائلته على يد جيش العصابات الإرهابية الصهيونية في يوليو/ تموز 1948. وقد نشرتُ هذه الأهزوجة في مجموعتي القصصية (المؤتمر) في 1992 في سياق قصة (الصمت).

(7) تختلف دواوين **عبد الرحيم محمود** في صدرِ هذا البيت من قصيدة الشهيد، ففي الديوان الذي وضعه **كامل السوافيري** في 1974 يرد الصدر كما يلي: (أرى مقتلي دون حقي السليب)، بينما يرد في الديوان كما وضعه **عز الدين المناصرة** في 1989 كما يلي: (أرى مصرعي دون حقي السليب). ويوجد مثل هذا الإختلاف في كتب ومصادر أخرى سواء منها الورقية أم الأليكترونية.

(8) (كفاح عرب فلسطين)، الناشر مكتبة الأسوار، عكا، 1984.

(9) ربما كان **الكرمي** يتحدث بصورة مجازية عن عُمْر **عبد الرحيم محمود** آنذاك، قبيل استشهاده ولم يكن قد تجاوز بعد الخامسة والثلاثين من العمر.

(10) حسب ما ورد في الموسوعة الفلسطينية- هيئة الموسوعة الفلسطينية- المجلد الثاني- دمشق- 1984.

(11) صدر هذا الكتاب في 1985 عن مركز إحياء التراث العربي في مدينة **الطيبة** في **فلسطين** المحتلة.

(12) من كتاب **المناصرة** طبعة 2009، ص 22.

(13) عبد الرحيم محمود شاعراً ومناضلاً- دكتور محمود الشلبي- 1988- صفحة 88.

(14) ورد في كتاب (عبد الرحيم محمود شاعرا ومناضلا) للدكتور **محمود الشلبي، عمّان**، 1984، أن **طلال**، أحد أبناء **عبد الرحيم محمود**، روى لمؤلف الكتاب أن أمه، زوجة الشاعر، قد أصيبت بصدمة عصبية عنيفة هزت كيانها، وأدت إلى انهيارها، ففقدت عقلها، ونقلت إثر ذلك للمستشفى للعلاج، وأنها توفيت بعد ذلك في عام 1955، ودُفنت في عَنبتا.

(15) السياسي الفلسطيني **عادل زواتي** يُعرف بأرشيفه الواسع المؤلف من عدد كبير من القصاصات المكتوبة بخط اليد والتي تعد مصدراً لمعرفة مجريات الأحداث في فلسطين قبل النكبة، ومنها قصاصات تحتوي على قصائد **لعبد الرحيم محمود**. كما أن له مؤلفاً منشوراً عنوانه (جولة في أدب الجاحظ) وهو في الأصل نص الرسالة التي قدمها **زواتي** للجامعة الأمريكية في **بيروت** للحصول على درجة أستاذ في العلوم، عام 1945. والكتاب من منشورات الجامعة المذكورة.

(16) أنظر **عيسى الناعوري**: صحيفة (الدستور) الأردنية بتاريخ 9 أغسطس/آب 1985 (الهامش كما ورد في كتاب: عبد الرحيم محمود – الديوان والمقالات النقدية. **محمد عز الدين المناصرة**، 2009. صفحة 16).